

أحمد لطفي السيد

١٨٧٢ - ١٩٦٣

عندما يذكر اسم أحمد لطفي السيد تذكر معه محطات مهمة من تاريخه وتاريخ مصر، وتذكر مع تلك المحطات أدواره المهمة فيها. هذه المحطات هي أولاً تلك المتصلة ببواكير شبابه عندما شارك مع عدد من وجوه الحركة الوطنية المصرية في عمل ثوري سري انتهى بتأسيس الحزب الوطني برئاسة مصطفى كامل. وهي ثانياً إصداره "الجريدة" التي كان يعبر فيها مع وجوه فكرية وسياسية مصرية نهضوية عن مطامح الشعب المصري في الحرية، وأسس معها "حزب الأمة". وهي ثالثاً ترؤسه الجامعة المصرية التي صارت في مطلع الخمسينات تحمل اسم جامعة القاهرة. وهي واحدة من أقدم وأهم وأرقى الجامعات التي عرفتها البلدان العربية قبل حصولها على استقلالها حتى أيامنا هذه. وكان للسيد دور مهم في تطويرها عندما ترأسها لفترتين. وهي رابعاً ترؤسه لدار الكتب وترؤسه للمجمع العلمي العربي وتوليّه وزارة المعارف. ومن أهم هذه المحطات في حياة أحمد لطفي السيد هي مشاركته في ثورة عام ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول.

ويهمني، في سياق الحديث عن سيرة هذه الشخصية المصرية الفذة، أن أشير إلى أنني زرت في أواخر شهر أبريل الماضي جامعة القاهرة. وكان لي شرف اللقاء مع رئيسها الدكتور جابر نصار ومعه عدد من معاونيه. وقدّمت لمكتبة الجامعة مجموعة من كتيبي الأخيرة. وشرفني رئيس الجامعة بتقديم درع الجامعة لي. واستمعت من الرئيس إلى بعض جوانب من تاريخ الجامعة، التاريخ الذي كنت قد قرأت شذرات منه تشير إلى دور أحمد لطفي السيد في تطوير الجامعة. وحرص الرئيس نصار أن يريني من نافذة مكتبه ساعة الجامعة التي تعتبر ثاني أقدم ساعة بتاريخ إقامتها في قلب الجامعة في عام ١٩٣٧ بعد ساعة "بيغ بن" اللندنية.

هذه المحطات في حياة أحمد لطفي السيد التي أشرت إليها سريعاً وأدواره فيها هي التي جعلت منه في تاريخ مصر الحديث واحداً من أكبر وأهم الوجوه الوطنية التي ساهمت في تأسيس مصر الحديثة.

يقدم أحد لطفي السيد في كتاب سيرته بعنوان "حياتي" إشارات عن تاريخ ولادته. يقول: "نشأت في أسرة مصرية صميمة لا تعرف لها إلا الوطن المصري. ولا تعتر إلا بالمصرية، ولا تنتمي إلا إلى مصر، ذلك البلد الطيب الذي نشأ التمدن فيه منذ أقدم العصور. وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقي والمجد. وقد ولدت في ١٥ يناير سنة ١٨٧٢ في قرية برقين من أعمال مركز السنبلوين في مديرية الدقهلية. وهي قرية صغيرة ربما سميت باسم برقين الفلسطينية. سكانها زراع ماهرون مشهورون بالمجد والنشاط والاستقامة. وقد اعتادوا أن ينطقوا بالقاف "جافا" والجيم جيماً معطشة كسائر أهالي مركز السنبلوين. وما زالت هذه اللهجة تغلب على حديثي. كان والدي السيد باشا أبو علي عمدة هذه القرية، كوالده علي أبو سيد أحمد. وقد كان يجيد حفظ القرآن الكريم كله. وعرف بشخصيته المهيبة وقوة شكيمة، وبعдалته في معاملته وعطفه على أهل قريته وغيرهم. وأذكر أنه ما قسا يوماً عليّ، ولا وجه إليّ كلمة نابية تؤلم نفسي. بل كان طيب الله ثراه - عطوفاً حكيماً في تربية أبنائه، يعنى بالقدوة الحسنة وحسن التوجيه والإرشاد".

أدخله والده في كتاب القرية الذي تعلم فيه القراءة والكتابة وحفظ القرآن. ثم أدخله بعد ذلك في مدرسة المنصورة لإتمام المرحلة الابتدائية. والتقى في المدرسة بعبد العزيز فهمي وأصبحا صديقين. وعبد العزيز فهمي هو واحد من كبار شخصيات مصر التاريخية. ثم انتقل السيد بعد ذلك إلى المدرسة الخديوية. ويعترف بأنه في المرحلة الثانوية من دراسته كان متوسط المعرفة. لكنه كان متفوقاً في اللغة العربية وفي الرياضيات. ثم التحق بمدرسة الحقوق التي كانت تعلم القانون واللغة العربية. وفي تلك الفترة تعرف على سعد زغلول والشيخ علي يوسف وحفني ناصف. كما تعرف على الشيخ محمد عبده عندما كان في جنيف وتأثر به وبأفكاره. كما التقى عندما زار اسطنبول مع جمال الدين الأفغاني الذي كان يقيم هناك بقرار سلطاني في السنوات الأخيرة من حياته. ويقول السيد في كتاب سيرته أنه تتلمذ على يد الأفغاني شخصياً وفي كتاباته.

أنهى أحمد لطفي السيد دراسته الجامعية في عام ١٨٩٤ وحصل على شهادة الليسانس في الحقوق. فعين مع زملائه كاتباً في النيابة ثم بعد ذلك وكيلاً للنيابة. وكان صديقه عبد العزيز فهمي يمارس نفس الدور وكيلاً للنيابة في ذلك الوقت بالذات. وهكذا بدأ السيد يشق طريقه في الاتجاه الذي أصبح فيه بالتدريج شخصية مصرية مرموقة. فقد شارك في تأسيس جمعية سرية مهمتها النضال لتحرير مصر من الاحتلال البريطاني مع عدد من أصدقائه من ضمنهم عبد العزيز فهمي. ثم التقى في القاهرة بمصطفى كامل بعد تشكيل تلك الجمعية. فقال له مصطفى كامل: "الخدوي عباس يعلم كل شيء عن جمعيتكم السرية وعن أغراضها. وأظن أنه لا تنافس فيها بين أن نشترك معاً في تأليف حزب وطني تحت رئاسة الخديوي". فوافق السيد على الاقتراح. فأرسله مصطفى كامل إلى الخديوي عباس الذي طلب منه أن يسافر إلى سويسرا لاستكمال معارفه وللحصول على الجنسية السويسرية لأغراض تتصل بالعمل الثوري في مصر في شروط أفضل في ظلّ الاحتلال البريطاني. ذهب السيد إلى سويسرا وأقام في جنيف فترة من الزمن. ثم عاد إلى مصر ليتابع ما كان قد بدأه في العمل الوطني لتحرير مصر من الاحتلال البريطاني. وكان أول ما قام به بعد عودته من جنيف لقاءه مع مصطفى كامل والذهاب برفقته إلى منزل محمد فريد للمشاركة في تأسيس الحزب الوطني كجمعية سرية يرأسها الخديوي عباس وعدد أعضائها تسعة. وكانت للمشاركين في التأسيس أسماء سرية، أذكر منها اسم الخديوي "الشيخ"، واسم مصطفى كامل "أبو الفداء" واسم أحمد لطفي السيد "أبو سليم".

التقى أحمد لطفي السيد في جنيف بالشيخ محمد عبده لاكتساب المعارف منه. الأمر الذي أغضب الخديوي عباس الذي لم يكن على علاقة طيبة بالشيخ الجليل. بعد عودته من جنيف استقال السيد من عمله في الأوقاف ليشغل بالمحاماة مع صديقه عبد العزيز فهمي لبضعة أشهر. ثم استقال من ذلك العمل لينصرف إلى السياسة والصحافة.

كانت تلك هي البداية في سيرة أحمد لطفي السيد. وهي بداية جمع فيها الرجل بين كونه أحد مؤسسي الحزب الوطني برئاسة مصطفى كامل لدى تأسيسه شرعياً في عام ١٩٠٨، وبين كونه مؤسساً مع عدد من أصدقائه للشركة التي أصدرت "الجريدة" في عام ١٩٠٧. وكانت "الجريدة" صحيفة مصرية حرة مستقلة شعارها الدفاع عن القضية المصرية. وكان قد ترافق تأسيس "الجريدة" مع تأسيس "حزب الأمة".

تنوعت نشاطات أحمد لطفي السيد وتعددت المواقع التي أسندت إليه في إدارة دار الكتب مرتين، وفي رئاسة الجامعة المصرية مرتين، وفي تولي وزارة المعارف مرة واحدة. وكان له دور كبير في تطوير الجامعة وتنويع الاختصاصات العلمية فيها، التي حولتها إلى واحدة من أهم الجامعات الوطنية في العالم العربي. وكانت سياسته في الجامعة تقوم على العمل من أجل جعل الجامعة منارة للعلم والمعرفة، وأن تكون صاحبة رسالة، وأن تكون حرة ومستقلة في أداء مهمتها التنويرية. ونأى بها عن العمل الحزبي. ثم انتقل في فترة لاحقة من الجامعة إلى وزارة المعارف. وصادف خلال وجوده في الوزارة أن أقصى عميد الأدب العربي طه حسين من الجامعة بسبب كتابه "الشعر الجاهلي"، فقدّم السيد استقالته من الوزارة احتجاجاً على ذلك القرار.

بالعودة إلى "الجريدة" التي كان السيد صاحب المبادرة في تأسيسها فقد كانت سياستها تقوم على النضال لتكون مصر للمصريين، وأن تتحرر من "الجامعة الإسلامية" التي كان قد أسسها السلطان عبد الحميد الثاني. فقد كان همّ السيد على الدوام الدعوة إلى حرية مصر واستقلالها. يقول السيد في سياق حديثه عن "الجامعة الإسلامية" التي أعلن رفضه لها بحزم: "... بعد أن رأى القارئ أن الجامعة الإسلامية لا أثر لها في مصر ولا نظن لها وجوداً في غير مصر، وأنها على هذه الصفة من العدم ليس من شأنها أن تزيد الجفاء بين الشرق والغرب، ولا أن تصلح ذريعة لرجال السياسة الأوروبية يتخذونها ستراً يستر أعمالهم في الشرق... قد يكون من المفيد جداً في هذا المقام أن نتعرض إلى مناقشة تلك التهمة

الثانية التي تربطها بالجامعة الإسلامية رابطة النسب أو رابطة العلة والمعلول، وهي تهمة التعصب الديني. والدين الإسلامي يأمر بالتعاون والتعاقد والائتلاف بين أفراد الأمة. كما يأمر بالعدل والإحسان، ويوصي خيراً بالمتحالفين له من أهل الأديان الأخرى على الصور المستفيضة في الفقه، وليس من مبادئه مطلقاً التعصب الشائئ الذي يعبر عنه الإفرنج الفاناتييزم".

إلا أن أحمد لطفي السيد السياسي ظلّ منذ بدايات حياته في الموقع الوطني ذاته، وصولاً إلى عام ١٩١٩، العام الذي بدأت فيه الثورة المصرية. وكان له دور في تشكيل الوفد الذي كلف بالتفاوض من أجل استقلال مصر. وكان الوفد مؤلفاً من سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي وآخرين. لكن السيد ذاته لم يكن في عداد الوفد الذي سافر إلى لندن للتفاوض. وظلّ السيد على علاقة ودية مع سعد زغلول منذ ذلك التاريخ حتى وفاته.

تميزت مواقف السيد كمفكر بالجرأة في التعبير عن أفكاره عندما كان رئيساً لتحرير "الجريدة"، ثم عندما كان مديراً لدار الكتب، ثم عندما كان رئيساً للجامعة، ثم عندما تفرغ في الأعوام الأخيرة من حياته للتأليف والترجمة. وكان من أهم ترجماته مؤلفات أرسطو. وكان من أهم المواقع الفكرية التي التزم بها هي رئاسته لمجمع اللغة العربية، ومشاركته في العديد من المجامع العلمية الأخرى. وكان معجباً بالأديب الروسي تولستوي ومتأثراً بأفكاره، وكتب عنه عندما وصله خبر وفاته في عام ١٩١٠. وخصّه بمكان مميز في كتاب سيرته "حياتي" مع المفكر المصري الكبير فتحي زغلول الذي كان يعتبر شخصية مصرية مميّزة مشيداً بإيمانه بأفكار الاشتراكية الديمقراطية. ويتوقف السيد في الكتاب عند أربعة رجال عرفهم، وهم حسن عاصم باشا ومصطفى كامل باشا وقاسم أمين بك وأحمد عرابي باشا. وخصص لقاسم أمين بالتحديد مكاناً مهماً في الكتاب مشيداً بكتبه التي كانت تدعو إلى تحرير المرأة.

توفي أحمد لطفى السيّد في عام ١٩٦٣ بعد أن أمضى من حياته ستين عاماً في الكفاح من أجل حرية مصر وتقدمها في شتى الميادين. وحقق الكثير من الأهداف العظيمة التي ارتبطت بسيرته في كل المحطات التاريخية منها وفي أدواره في تلك المحطات.

تلك هي شذرات من سيرة بطل من أبطال مصر أستحضر اسمه وتاريخه في هذه اللحظة من حياة مصر التي تقف فيها على مفترق طرق سيكون على المصريين من أصحاب الآراء والمواقف والأهداف الحرة أن يعودوا إليها ويستفيدوا منها في المرحلة القادمة التي ينتظرها الشعب المصري.